الفلسفة العربية

ما أخذت وما أعطت

لفلجنزو الفوسي

— ١ —

ليس هنالك في ما أعتقد شيء من جميع ما ترك أسلافنا العرب من تراث خالد ما هو أدعى للاعجاب والفخار من ان نرى تلك الفئة اليسيرة من أقطاب الفلسفة العربية تحتل مكاناً بارزاً في مصاف فلاسفة العالم وأن تنقش أسماؤهم على لوحة الخلود الى جانب أشهر نوابغ العالم ورجاله المفكرين . فأسماء ابن سينا والغزالي والفارابي وابن رشد وابن جبرول وابن الطفيل ستظل مقرونة أبداً الى اسم فيثاغورس وأفلاطون وأرسطو والقديس توما والبرت الكبير وغيرهم من أساطين الفلسفة الخالدين . بل ولسوف يسمو ذكر أولئك بتوالي القرون اذ تدرك الشعوب انهُ لولا جهود العرب ورغبتهم النادرة في نشر الفلسفة والعلوم واحتفاظهم في ظلمات تلك الاجيال بكنوز علوم المتقدمين لتأخرت النهضة العلمية في بلاد الغرب قروناً عدّة لا محالة

وأي عربي لا تأخذهُ هزّة الطرب والارتياح الشديد عند ما يذكر كيف كانت تتقاطر توافل طلاب العلم والفلسفة من متفرق الانحاء الى قرطبة بالاندلس مدينة العلم الزاهرة وكعبة الفلسفة في ذلك العصر ليتلقوا عن أبي الوليد ابن رشد أسرار الحكمة المشرقية وآيات الفلسفة العربية وكيف كانت الملايين من ذوي المعرفة والاطلاع في أرقى الممالك يترقبون معرفة آرائهِ وأفكاره ليسترشدوا بهديهِ ويستنيروا بنبراسهِ

لشأت الفلسفة العربية في زمن تشابه أحوالهُ وعوامله الاحوال والعوامل التي دعت لقيام الفلسفة اللاهوتية Scholasticism وقد كانت كلتاهما تنتمي من مصدر واحد هو الفلسفة اليونانية القديمة والافلاطونية الجديدة Neo-Platonism وترميان الى غرض واحد هو تطبيق

التعاليم الدينية على أحكام العقل او التوفيق بين مذاهب الفلسفة وعقائد الدين . وقد تقدم معنا في مقال سابق تحت عنوان « أدوار الفلسفة الثلاثة » ان الفلسفة اللاهوتية لم تطلع بمذهب جديد في عالم الفلسفة وهكذا كان شأن الفلسفة العربية . ذلك لان زعماء الفلسفتين العربية واللاهوتية لم يكونوا طلاب حقيقة لان الحقيقة الواحدة العظمى أنزلت لهم وحياً في الكتب السموية فلم يكن ثمَّ من حاجة الى مزيد . ولولا ان اعداء الدين من فلاسفة الوثنية قاموا يحاولون نقض الاديان الالهية الجديدة وخنقها في المهد ربما لم تكن هنالك فلسفة لاهوتية ولا عربية . ولما كان سلاح خصوم الدين الجديد مبادىء الفلسفة القديمة التي كانوا يفسرونها ويؤولونها حسبما يوافق أغراضهم كان لا بدَّ لفلاسفة اللاهوت من اتقان الفلسفة اليونانية وتمحيصها لمحاربة اولئك القوم بمثل اسلحتهم وردهم على أعقابهم خائبين . وقد بلغ فلاسفة العرب في اتقان فلسفتهم الدينية حدًّا جعل العلاَّمة الفيلسوف الفرنسي ليري يقول ان الفلاسفة العرب قد فاقوا في فلسفتهم الدينية نظراءهم من فلاسفة النصرانية . وهو اعتراف له قيمته الكبيرة عند اهل العلم والمعرفة

بيد انه وان يكن الفلاسفة العرب لم ينشئوا مذهباً خاصًّا جديداً في الفلسفة فانهم تمكنوا من ان يجعلوا لفلسفتهم شأناً يذكر في سائر الاقطار . وذلك عائد الى ذكاء العربي الغريب الذي استطاع ان يمثل الفلسفة اليونانية تمثيلاً يقرِّبها كثيراً من الاذهان ويجعل تناولها سهلاً سائغاً لجميع طلاب الفلسفة والعلم . وان من يمعن النظر في رسالة « حي بن يقظان » للفيلسوف الاندلسي الكبير ابن الطفيل يدرك الحد البعيد الذي بلغه فلاسفة العرب في اجتلاء غوامض الفلسفة اليونانية وفك طلاسمها وكشف خفاياها

***

قلت ان القصد من الفلسفة العربية كان تطبيق مبادىء الفلسفة على تعاليم الدين والتوفيق بينهما وقد جرى القوم على ذلك في كافة شرائعهم وسننهم بإيمان خالص وتسليم تام . بيد ان فريقاً منهم ممن اطلقوا لانفسهم حرية التفكير الفلسفي رأوا في بعض عقائد الدين ما لا ينطبق تماماً على احكام العقل او مقتضيات مذاهب الفلسفة فخالفوا الجماعة في تلك العقائد وأنشأوا لانفسهم مذهباً خاصًّا وكان منهم فرقة المعتزلة

بيد ان أول الآثار الفلسفية التي تذكر وأهمها في تاريخ الفلسفة العربية هي « رسائل اخوان الصفا » وهي احدى وخمسون رسالة وضعها اصحابها وكلهم من أهل التقوى والاطلاع الواسع افرغت في شكل دائرة معارف لتكون مجموعة الفلسفة والعلوم منذ العصور القديمة الى ذلك العصر . وقد كان لهذه الرسائل شأن خطير وتأثير قوي في جميع انحاء العالم الاسلامي لا سيما وان واضعيها

ممن انصرفوا الانصراف التام الى الامور الدينية والتفكير الفلسفي . أما الغاية الرئيسية التي ترمي اليها هذه الرسائل فهي ترقية النفس البشرية بالمواهب الروحية الى أن تبلغ حد الكمال الانساني بما يماثل الكمال في الذات الالهية وذلك بواسطة التأمل والتفكير الفلسفي . وانها لفكرة جديرة بكل اعتبار . ولا نقول ان الفلاسفة اليونان لم يدركوا هذه الحقيقة او لم يقولوا بها لكنهم لم يعيروها الاهتمام اللازم ولم يحلوها المنزلة التي احلها فيها فلاسفة العرب حتى في بدء عهدهم بمباحث الفلسفة ومذاهبها وطرقها . ثم إن المحور الذي تدور حولهُ ابحاث الرسائل هو نظرية الفيض الالهي التي اخذها العرب عن المذهب الافلاطوني الجديد وآثار هذا المذهب ظاهرة في كل موضع في الرسائل تقريباً وخلاصتهُ ان كل شيء في الوجود صادر بطريق الفيض او الانبعاث من الذات الالهية العظمى والى وحدة تلك الذات الالهية مرجعهُ ومعادهُ وان على الانسان أن يحرر نفسهُ من عبودية المادة ويطهرها من ادرانها لتعود النفس طاهرة خالصة الى بارئها والمصدر الذي كان علة وجودها . وقد كان لهذه الرسائل شهرة واسعة وتأثير كبير في كافة الاوساط على الرغم مما يتخللها من اقوال ومباحث كثيرة في الرافة والسحر والتنجيم وغيرها من الابحاث العقيمة

ثم ان جماعة الاخوان اصحاب الرسائل يؤلفون بانفسهم مدرسة خاصة مستقلة ولفلسفتهم صبغة دينية بحتة ولا غرو فهم قوم انصرفوا بالاكثر الى الامور الدينية طيلة حياتهم فلم يكن بدٌ من ذلك الاتجاه الديني الصرف

***

على ان هنالك فريقاً من اهل الفلسفة يرجعون في مبادئهم الفلسفية الى قواعد المنطق واحكام العقل ويبنون آراءهم على حوادث الطبيعة ونواميسها وأحكامها وهم يؤلفون أنفسهم مدرسة خاصة تعرف بمدرسة الطبيعيين او العقليين لاعتمادهم احكام العقل وقواعد المنطق في بناء آرائهم ونظرياتهم . ويمكن قسمة هذه المدرسة الى قسمين : المدرسة الشرقية التي زهت في خاصة الخلافة العباسية في اوائل العهد العباسي اي في القرن العاشر والحادي عشر . والثانية التي قامت في عهد الخلافة الاموية بالاندلس . وقد كان اهم اركان المدرسة الشرقية ابو اسحق الكندي (توفي سنة ٨٧٠ م٢٥٧هـ) وابو نصر الفارابي (٩٥٠م٣٣٩هـ) والشيخ الرئيس ابن سينا (١٠٣٧م٤٢٩هـ) وجميعهم من القائلين بان الفلسفة يجب ان تبنى على العلوم الطبيعية وذلك بدرس الطبيعة نفسها ومراقبة أنظمتها ونواميسها . وهم يستمدون قواعد المنطق في وضع آرائهم واحكامهم وهذا ما يعبر عنهُ بإبناء العصر الحديث بالطريقة العلمية الحديثة وهي الرجوع في كافة

المذاهب والآراء الطبية والفلسفية الى نواميس الطبيعة واحكامها . الا ان النظر العلمي عند زعماء هذه المدرسة يختلف كثيراً عن رأي أهل هذا العصر فهم يدخلون ضمن دائرة العلم الطبيعي ويخلطون به أبواباً وفنوناً غريبة ليست من العلم في شيء كفنّ السحر والتنجيم وتفسير الاحلام وغير ذلك . وكانوا يعتبرون هذه جميعها أبواباً او فروعاً حقيقية من فروع العلم ولها من الشأن ما لغيرها من العلوم والفنون الطبيعية . وكانوا يعتقدون بوجود أرواح تطوف أنحاء الفضاء وتقطن النجوم ويزعمون ان من هذه الارواح الملائك الوارد ذكرها في القرآن والتوراة

***

أما في ما يتعلق بخلق العالم ومادة الكون الاصلية فان الفارابي وابن سينا يعدّلان مراعاةً للتعاليم الدينية رأي اريسطو القائل بازلية المادة ويتخلصان من الوقوع في نظرية الخلق من العدم بقسمة الوجود الى قسمين واجب وممكن . فالواجب هو الكائن او الموجود الاول وهو ما يوافق الفارابي وابن سينا فيه رأي اريسطو بانهُ العقل الاول او الفعال أول وأتم الصادرات رأساً عن الذات الالهية العظمى . وهو أزلي أبدي وكل ما عداه فهو مسبب عنهُ متولد منهُ . أما كيفية نشوء العالم من مصدر وجوده فهي بطريقة الفيض او الانبعاث emanation theory ويذهب الفارابي الى أن المادة هي احد الاشياء المنبثة او الصادرة عن الذات الالهية . أما ابن سينا فيقول بازلية المادة والعالم . ولكنهُ كليهما يعتقد ان الخلق سناءُ بروز الصورة في المادة او خروجها من حيز القوة الى حيز الفعل فكأن الباري جلّ وعلا يضع في المادة قوة كامنة لها الاستعداد الكافي للظهور بالصور المختلفة عند حصول الظروف او الاسباب الملائمة لظهورها

ويذهب الفارابي وابن سينا — وهو مذهب اريسطو بعينهِ — الى ان العقل الاول او العام هو الذي يتحد بالعقل الانساني في الافراد فيتولد منهُ المعرفة والعلم . ويزعم الفارابي ان العقل المتولد في الفرد من هذا الاتحاد هو خالد أبدي وهذا يوازي القول بخلود النفس . أما ابن سينا فيذهب مع أريسطو الى أن الخالد انما هو العقل العام او عقل الانسانية فقط دون الافراد

وفي أواخر القرن الحادي عشر ظهر كتاب « تهافت الفلاسفة » للامام الاكبر الفيلسوف ابي حامد الغزالي فأفل بظهوره نجم الفلسفة في بلاد المشرق . ذلك ان الامام أبا حامد يحاول في كتابهِ «التهافت» نقض مذاهب الفلاسفة العرب كابن سينا والفارابي وغيرهما وذلك انتصاراً للدين ومراعاةً لحرمة التعاليم الدينية فجاء كتابهُ صدمة للفلسفة في ذلك العصر وكان من أثر ظهوره أن ثبطت همم الفلاسفة العرب عن مباحث الفلسفة وقضى ارباب السلطة باحراق كتبهم

الفلسفية ولكن لم يتعرض الغزالي في ابحاثه لمسألة الخلق وخلود النفس وهو مخلص غير جدير باهل الفلسفة ورجال العلم

بيد انهُ لم تكد تغرب شمس الفلسفة العربية في عاصمة العباسيين حتى طلعت في سماء الغرب في تلك البقعة العربية الصغيرة في الاندلس، ولكن بلمعان ابهى وضياء اسطع اذ قام نخبة من اعلى النبوغ الشرقي والذكاء الغربي النادر فاقاموا معالم الفلسفة وبلغوا بها مبلغاً رفيعاً وذاعت شهرتها في الآفاق حتى غدا طلاب العلم يتوافدون بالالوف من مسلمين ونصارى ويهود الى قرطبة كعبة الفلسفة والعلم في ذلك الوقت لاستماع اقوال ابي الوليد ابن رشد وتلقي مبادىء الفلسفة ومذاهبها عنهُ . وقد كانت طريقة ابن رشد في التدريس من نوع القاء الخطب والمحاضرات في شتى الموضوعات الفلسفية والعلمية والادبية . ويعتقد الافرنج ان الذكاء العربي بلغ في ابن رشد اقصى مداهُ

***

كان ابو بكر محمد بن باجة يعتقد بخلود العقل العام دون الخاص وهو عقل الانسانية التي تبدو ماهيتهُ وآثاره في الافراد. وكان ينكر الصوفية (mysticism) والاعتقاد بالفناء او الاندغام في الذات الالهية بواسطة التقشف والصلاة او الهيام والاستغراق (ecstasy) بل يقول ان هذا الاتحاد يمكن بواسطة ترقية قوانا العقلية ومواهبنا الروحية الى المراتب السامية التي يتم بها ذلك الاستغراق والاتحاد . وقد وافقهُ على ذلك ابو بكر ابن الطفيل في روايته الفلسفية المشهورة « حي بن يقظان » التي يمثل فيها كيفية نشوء القوى العقلية والروحية في فرد نشأ في جزيرة بعيدة منقطعة عن العمران وكيف توصل اخيراً بالارتقاء العقلي الطبيعي والرياضة الروحية الى الاندماج في الذات الالهية وهو غاية مسعاهُ . وان من يطالع هذه القصة الفلسفية السامية يدرك ان الفلاسفة العرب لم يتركوا باباً من ابواب الفلسفة الطبيعية والعقلية لم يعالجوه ولم يغادروا موضوعاً لم يوفوهُ حقهُ من البحث والتفكير

أما الفيلسوف الكبير ابن رشد وهو الذي يعرفهُ الافرنج باسم Averroes فقد كان محجباً كل الاعجاب بالفيلسوف اليوناني اريسطاطاليس وكان يعتقد ان الذكاء البشري بلغ في هذا الفيلسوف اسمى مراتبهِ

كان نصارى عهد ابن رشد شرح فلسفة اريسطو وتمثلها تمثيلاً صحيحاً شافياً بما يقرب كل القرب من الاصل اليوناني فينفرد وحده بذلك الشرح والتفسير . ولكن من المحقق انهُ لم

يستطع انجاز مهمته هذه وذلك لسببين : الاول لان ابن رشد لم يدرس فلسفة اريسطو في كتبه الخاصة وبالاصل اليوناني لانه كان يجهل اللغة اليونانية بل في الكتب العربية التي ترجمها علماء النساطرة والسريان في الشرق والغرب وهؤلاء اخذوها نقلاً عن زعماء المذهب الافلاطوني الجديد ومن شروحهم لفلسفة اريسطو التي اصطبغت بين ايديهم بشيء كثير من نظرياتهم وآرائهم الخاصة . لهذا ترى في شرح ابن رشد وتعليقاته على فلسفة اريسطو مذاهب وآراء ليست منها كمسألة الفيض الالهي ومسألة عقل الانسانية العام وغيرها . والثاني لان ابن رشد كسائر فلاسفة القرون الوسطى كان لا بد لهُ في وضع آرائه الفلسفية من مراعاة جانب الدين خشية الرأي العام وسخط الرؤساء والحكام

***

ذهب ابن رشد في قضية الصورة والمادة الى ان الصور كائنة بالقوة في المادة نفسها غير مضافة اليها كما زعم الفارابي وابن سينا ويحصل ذلك بواسطة قوى او صور اسمى منها والتي اسماها العقل الالهي . لذلك فمسألة الخلق حسبما يعتقدها الجمهور لا تعقل ، ويقول ان هنالك عقلاً واحداً عامًّا هو عقل الانسانية وهذا العقل العام يفعل في العقول الخاصة في الافراد فيرشدها الى المعرفة . وهذا بالله ابن رشد بهذه الكيفية : ان في نفوس الافراد استعداداً فطريًّا او قابلية للتأثر بهذه المؤثرات فاتحاد العقل العام بنفس قابلة التأثر ينجم عنه نفس فردية مستقلة . كما ان النور لا يصير شيئاً محسوساً الاَّ اذا صادف جسماً ماديًّا تنعكس عنه أشعته كذلك شأن النفس التي فيها استعداد للتأثر بمؤثرات العقل العام ثم انه بتوالي تأثير العقل العام في الخاص او عقل الفرد فان المعرفة الكامنة في الاخير تصير ظاهرة بارزة وتأخذ بالارتقاء تدريجيًّا الى ان تبلغ اسمى مراتب الشعور الذاتي او معرفة الذات وتصير اذ ذاك واحدة مع الروح الكلي وبعبارة اخرى تندمج او تندغم فيه وتصير جزءاً من العقل الكلي المشترك بين ابناء الانسانية . بهذا المعنى فقط يمكننا ان نقول ان الارواح خالدة لا ان النفس البشرية خالدة بذاتها كما يعتقد عموم البشر انما الخالد هو الروح الكلي فقط

***

واتهم ابن رشد في سنيه الاخيرة بنشر مبادئه وتعاليم تضاد عقائد الدين فأمر الخليفة المنصور بنفيه من ديوانه الاَّ انه عاد فعفا عنه لما عرف من سوء حاله في منفاه ولكن لم يعش ابن رشد بعد العفو عنه الاَّ سنة اوحدة ثم توفي في عام ٥٩٥ للهجرة وله من العمر ٧٥ سنة